آندرو غريب: مترجم جبران إلى الإنكليزية

إدمون غريب

ولد أندراوس (آندرو) عيسى الغريب في قرية عيتا الفخار الرابضة على سلسلة جبال لبنان الشرقية في أوائل عام 1899م لوالديه عيسى الغريب وزوجته الثانية شملكية المعلوف. وبعد فترة قصيرة من ولادته، هاجر والده ليلتحق بأخيه وأبناء أقاربه الذين سبقوه إلى ولاية ماساتشوستس الأميركية. وقامت شملكية بتربية آندرو وأخيه الأكبر أسعد، وكان والده وأقرباؤه قد غادروا لبنان، كما فعل الآلاف من مواطنيهم، هربًا من جور الحكم العثماني وبحثًا عن فرص حياة أفضل. وفي هذه المرحلة التحق آندرو، وهو حينئذ ابن سبع سنوات، بالمدرسة التي كانت الجمعية الخيرية الروسية قد أسستها في بلدته، حيث بدأ تعلم العربية والروسية والحساب والجغرافيا. وغادر أخوه أسعد بلدته عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره. وفي عام 1913م طلبه والده لمساعدته في عمله، فأخذه عمه فارس إلى بيروت، حيث دفع - كما يقول آندرو - ليرتين ذهبيتين لصاحب زورق صغير لينقله إلى سفينة متجهة إلى مرسيليا، لأن الدولة لم تكن تسمح بهجرة الشباب. وكانت هذه هي الرحلة الأولى لهذا الشاب اليافع خارج محيطه، وكان يقول إنه افتقد والدته وأصدقاءه وبلدته، وإنه بكى كثيرًا في الأيام الأولى من رحلته. وبعد وصول السفينة إلى مرسيليا قيل له إنه لن يستطيع مواصلة السفر لأنه يعاني من مرض التراخوما. ولم يُسمح له بالسفر إلَّا بعد أيام عندما اقترح عليه أحد المترجمين دفع مبلغ من المال الزهيد الذي كان بحوزته للمسؤول. وعقب أسبوع من رحلة صعبة وسط أمواج عاتية في المحيط الأطلسي وصل إلى مدينة نيويورك. وخلال مروره بدائرة الهجرة سأله الموظف المسؤول بدائرة الهجرة عن سنه، فأجابه عبر المترجم (لأنه لم يكن يعرف إلَّا حوالي خمسين كلمة من اللغة الإنجليزية) بأن عمره 14 سنة. ولكن المسؤول شك في ذلك، حيث كان آندرو طويل القامة، فرفع يده وقال للمسؤول عبر المترجم: «هل كل أصابع يدك متساوية في الطول؟» فضحك المسؤول وقال له: «جواب جيد، اذهب مع التوفيق».

وتوجَّه آندرو مع أقربائه الذين كانوا بانتظاره إلى مدينة شيكوبي فولز الصغيرة، وبدأ في

العمل مع والده وعمه وأخيه في المتجر الصغير الذي كانوا يملكونه في تلك المدينة. وعندما بدأ موسم الدراسة، التحق آندرو بمدرسة سانت مايكل، وبعد ثلاث سنوات، انفصل والده وعمه في العمل المشترك في المتجر، ذهب والده إلى مدينة نورث هامبتون وفتح متجرًا جديدًا. دخل آندرو مدرسة البلدة وتلقف اللغة الإنجليزية بسرعة حتى بزَّ جميع زملائه الأميركيين، كما تعلم اللغة البولندية، لأن معظم زبائنهم كانوا من البولنديين. وكانت هذه المرحلة بمثابة نقطة تحول في حياته، حيث تعرف على مكتبة فوربس في البلدة، التي تقع بجانب كلية سميث الشهيرة. وكانت هذه المكتبة تحتوي العديد من الكتب باللغة الإنجليزية، فضلًا عن كونها من المكتبات القليلة التي احتوت كتبًا أدبية وتاريخية بلغات أجنبية بما فيها اللغة العربية. وبدأ آندرو يتردد على هذه المكتبة ويمضي فيها الكثير من أوقات فراغه، وكان قارئًا نهمًا وظل كذلك طيلة حياته. وتعرف في هذه المكتبة على أمهات الكتب الأدبية والتاريخية، كما بدأ يظهر بعد زياراته للمكتبات في نورث هامبتون وجوارها اهتمامًا خاصًّا بالكتب القيمة والطبعات الأولى النادرة، وأصبحت هذه إحدى هواياته التي لازمته في حياته وأصبحت بمرور الوقت مصدر دخل حيث كان يقوم بشراء هذه الكتب وبيعها، علمًا بأنه كان يشتري بعضها ولا يتخلى عنها.

وخلال الحرب العالمية الأولى شرع آندرو بقراءة الصحف المهجرية التي لعبت دورًا هامًّا آنذاك فوصلت أعدادها بين عامي 1829م و1930م إلى 79 صحيفة ومجلة ودورية من مختلف الأنواع على الرغم من صغر حجم الجالية العربية وفقرها المادي النسبي. وكانت هذه المطبوعات تؤمن للعرب في مهجرهم المعلومات حول بيئتهم الجديدة وتعلمهم القوانين والعادات وأساليب الحكم والسياسة في بلادهم الجديدة، كما عرفتهم على آخر الاكتشافات العلمية والتقنية في ذلك الوقت. كذلك ساهمت صحافة المهجر في المحافظة على اللغة العربية بين المهاجرين وأبنائهم، كما كان بعض كتاب هذه الجرائد قد تأثروا بالأدب الغربي وكان ثمة امتزاج بين الفكر الغربي والفكر الشرقي. وطورت صحافة المهجر خطًّا جديدًا للأدب والشعر العربي، الأمر الذي لم يقتصر تأثيره على الحركة الأدبية في المهجر، بل تجاوزه ليصل إلى الوطن الأم ويؤثر وبقوة على الحركة الأدبية والشعرية فيه. ولعبت هذه الصحف دورًا في تعريف المهاجرين بأخبار أوطانهم، خصوصًا خلال الحرب العالمية الأولى. وكان لبعض هذه الصحف مراسلون في مصر ولبنان واسطنبول وفي دول الاغتراب الأخرى، كما أنها أحدثت ثورة تقنية حيث إن صحيفة الهدى، على سبيل المثال، كانت أول جريدة عربية في المهجر تستعمل مطبعة اللينوتايب التي سهلت الطباعة باللغة العربية وبدأت الصحف العربية في العالم العربي في استخدام هذا النوع من الطباعة نقلًا عن صحف المهجر.

وفتحت هذه الصحافة أبوابًا جديدة أمام آندرو، معرّفة إياه على الأدب المهجري. وبعد عدة سنوات في عام 1921م خدم آندرو في الجيش الأميركي وتسرّح بعد عام، وحصل على الجنسية الأميركية التي لم تكلفه، كما كان يردد، أكثر من 16 سنتًا هي ثمن الطابع البريدي. وتم استدعاؤه للخدمة في البحرية الأميركية حيث عمل حتى عام 1923م، وطلب تسريحه بعد ذلك لأنه كان يفكر في العودة إلى لبنان. ولكنه عاد للعمل مع أخيه في متجره، كما أكثر من زياراته إلى نيويورك وبوسطن حيث تعرف على عدد كبير من محرري الصحف المهجرية وكتّابها، وبدأ ينشر بعض المقالات والأشعار، وأظهر اهتمامًا بترجمة بعض كتابات أدباء المهجر إلى اللغة الإنجليزية. وتعرف آندرو على الأديب الكبير ميخائيل نعيمة عن طريق أحد أقربائه الذي كان صديقًا لنعيمة. وكان آندرو من المعجبين بكتابات نعيمة الذي عرفه فيما بعد على أعضاء الرابطة القلمية وعدد آخر من كتّاب ومحرري الصحف في نيويورك، كما شجعه على الاستمرار في الترجمة والكتابة. وكان آندرو يرسل إلى نعيمة بعض ما ينشر من هذه الترجمات.

شرع آندرو في ذلك الوقت بالكتابة في بعض الصحف المهجرية مثل النسر ومرآة الغرب والسمير و«ذي سيريان وورلد» التي كانت تصدر باللغة الإنجليزية وتخاطب الجيل الثاني من المغتربين. وقد نشرت أوائل ترجماته في صحيفة «ذي ريبابليكان» التي كانت من الصحف الأميركية المهتمة بالشؤون الأدبية والشعرية، والتي صادق آندرو بعض كتّابها ومحرريها ممن أعجبوا بقدرة هذا الشاب المهاجر الذي ملك ناصية اللغة الإنجليزية وبرع فيها تحدثًا وكتابة. وساعد آندرو بعض أدباء المهجر الذين كتبوا بالإنجليزية في نشر بعض أشعارهم في هذه الصحيفة، كما بدأ يترجم بعض الأشعار والمقالات القصيرة لمن أعجب بهم من كتّاب المهجر إلى اللغة الإنجليزية. وقد أعجب آندرو بكتابات أمين الريحاني وجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة وآخرين، فضلًا عن نعيمة. وعندما نشرت قصيدة جبران «أيها الليل» كان دائمًا يردد بأنها من أجمل كتابات جبران، قام آندرو بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية وأرسلها للمحرر الأدبي في صحيفة «ريبابليكان» الذي أعجب بها ونشرها، وقام بإرسال قصاصة من الترجمة إلى صديقه نعيمة، فعرضها بدوره على جبران الذي عبر عن رضاه عنها وسأل نعيمة عن هوية المترجم، فقال له «إنه شاب من بلادنا»، كما ذكر نعيمة لآندرو في ما بعد. وأخبره بأن جبران، بعد أن قرأ ترجمة آندرو لقصيدته «الأرض»، قال إن آندرو نجح في ترجمة روح القصيدة، وإن الفرع في بعض المقاطع أجمل من الأصل. وفي إحدى رسائله إلى آندرو والمؤرخة في 9 أكتوبر/تشرين الأول 1928م كتب نعيمة: «سلام على روحك الطيبة وعلى تلك الشعلة الجميلة التي حببت إليك الشعر ودخلت بك إلى فضاء الأدب الواسع. وبعد، فقد تلقيت كتابك اللطيف والقصاصتين من ترجمتك لقصيدة جبران، وقد اتفق وأن عاد جبران البارحة من بوسطن واجتمعت به اليوم

وقدمت إليه نسخة من ترجمتك وأخبرته عنك وعن مجهوداتك في ترجمة الجميل من آدابنا إلى اللغة الإنجليزية، فسُرَّ بك وبالترجمة، كما سررت أنا بك وبها».

وبعد فترة ذهب آندرو لزيارة نعيمة في نيويورك، ووجده جالسًا إلى مكتبه يتحدث عبر الهاتف ويناقش بحماس مع شخص آخر كتاب «يسوع ابن الإنسان» لم يعرف آندرو في البداية من كان ذلك الشخص. وأشار نعيمة لآندرو بأن يجلس، واستمر الحوار لمدة نصف ساعة، وعرف آندرو من خلال المكالمة أن نعيمة كان يتحدث مع جبران. ومما قاله نعيمة في تلك المكالمة: «إن الكتاب رائع، ولكن لكل منا يسوع». وفي رسالة أخرى لآندرو يشكره فيها على مساعدته على نشر قصيدته «الشرارات» باللغة الإنجليزية في صحيفة الريبابليكان، يعلّق نعيمة على مراجعة أحد محرري الصحيفة لكتاب «يسوع ابن الإنسان». ومما كتب نعيمة في تعليقه على المراجعة: «إنني قرأت مقالة باروني (كاتب المراجعة) في يسوع ابن الإنسان بلذة فأعجبني التوازن بين شعوره وفكره، والاتساق والخفة في أسلوبه، والعدالة في نظراته، والجمال في روحه جعله يقدر ما في الكتاب من جمال المكتوب والمرسوم. إني أوافقه في أن الكتاب من حيث أسلوبه، تحفة فنية، أما من حيث موضوع يسوع فلكل يسوعه، ولا أظن الكثيرين يستبدلون يسوعهم الذي عرفوه من الإنجيل بيسوع الذي يصوره جبران».

وعن المكالمة آنفة الذكر، قال آندرو إن نعيمة قال لجبران إنه يتفهم تفسيراته وتصرفه بعدد من الأمور المذكورة في الإنجيل، لكن: «أنت لا تستطيع أن تتصرف بالعظة على الجبل التي لا يمكن تغيير كلمة فيها.» ولكن آندرو لم يسمع ما كان يقوله جبران. وقبل نهاية المكالمة سأل نعيمة جبران: «أتعرف من عندي الآن؟» ولم يسمع آندرو رد جبران، ولكنه سمع نعيمة يقول: «لا، لا، لا». وفي النهاية قال له: «عندي آندرو غريب.» وبعد لحظات أقفل نعيمة الخط وقال: «هذا جبران ويريدك أن تذهب إليه في الاستديو فورًا».

وكان آندرو من المعجبين جدًّا بجبران، وفي مقابلة مع الصحفي الأميركي توم شاي سأله عن أسباب اهتمامه بجبران، فأجابه آندرو: «إن أعمال جبران أثارت مشاعري ودفعتني إلى متابعة وقراءة كل ما كان يكتبه، وقررت بعد فترة أن هذا الأدب الجبراني وكتابات المبدعين من كتّابنا الآخرين يجب ترجمتها وتقديمها لقراء اللغة الإنجليزية. ومنذ البداية كنت أعتقد أن كتابات جبران تحتوي على رسالة روحية أدبية وفنية عالمية، وأردت أيضًا تعريف الأميركيين خاصة بآدابنا وتراثنا وكتّابنا المجددين».

وفي مقابلة مع الكاتب والشاعر اللبناني هنري زغيب نشرت في مجلة الناقد في 25/ 7/ 1990م ذكر زغيب أن آندرو أخذ قطار الأنفاق إلى الشارع العاشر غربًا قاصدًا ستديو جبران الذي قابله بثياب الرسم، وكتب زغيب كما قال له آندرو: «كان بابه مفتوحًا (كما كان دائمًا فيما بعد)، وكان وحده. أذكر اللحظة كأنها الآن، فوقفت أمام رجل شابّ أنيق المظهر وسط بعثرة في الاستديو (وكان يسميه الصومعة)، وموقدة ختيارة في الوسط يتلهى

برمادها العميق. سألني عني، عن أحوالي، عن عائلتي، وعن تفاصيل كثيرة. كان حنونًا في استقباله وحانيًا في إصغائه، وكأن أمري يهمه. وعرفت فيما بعد أنه كان كثير الاهتمام بمواطنيه كأنه المسؤول عن همومهم. وشعرت أن استئناسه بي وبترجماتي يعود إلى كوني لبنانيًّا. ثم سألني أن أقرأ له ما ترجمت له. أصغى بصمت واسع وتأثر شديد».

واستمرت الزيارات. وفي زيارة أخرى عام 1928م ترجم آندرو قصيدة «الصوفي» لجبران التي نشرت أصلًا في مجلة السائح، ولكن دون ذكر اسم جبران الذي سقط سهوًا، الأمر الذي أحزن جبران. وصححت المجلة في عددها التالي الأمر مشيرة إلى أن القصيدة «لنابغتنا جبران خليل جبران». وعندما قرأ سلوم مكرزل رئيس تحرير مجلة «ذي سيريان وورلد» الترجمة التي كان آندرو ينوي إرسالها إلى مجلة «الكتاب الذهبي» الأميركية، طلب منه السماح لهم بنشرها وإرسال قصيدة أخرى إلى المجلة. كذلك ترجم آندرو في ما بعد قصيدة «الشهرة»، التي أعجب بها جبران كثيرًا، خاصة وأن آندرو ترجم عبارة في الشطر الأخير هي «فلم أجد في الرمل سوى جهلي» مستعيضًا عن «الجهل» بـ«العمى». وعندما قرأها جبران قال له: «إن هذا هو بالضبط ما كنت أريد قوله، وأنت ترجمت فكري وليس كلماتي.» وقدم جبران لآندرو نسخة من كتابه الصادر حديثًا «يسوع ابن الإنسان»، ممهورًا بتوقيعه «إلى آندرو».

واستمر آندرو في ترجمة أشعار جبران وأشعار آخرين، ومن بينها قصيدة «الطلاسم» لإيليا أبي ماضي، و«لست أدري» لنسيب عريضة، وغيرهما. وفي إحدى زياراته لجبران قال آندرو إن لديه مجموعة من القصائد المترجمة يود نشرها في كتاب، فوعده جبران بالمساعدة في نشرها مع شركة «كنوف» التي كانت تنشر كل كتابات جبران بالإنجليزية. وكان آندرو قد طلب خلال زيارة سابقة في 15/ 7/ 1928م من جبران أن يعطيه إذنًا خطيًّا بترجمة كتابات جبران العربية إلى الإنجليزية إذا كان راضيًا عن ترجماته. وقد كتب زغيب إن جبران لم يتردد، فقام إلى طاولته وكتب إذنًا خطيًّا يعطي آندرو حق ترجمة كتاباته من اللغة العربية إلى الإنجليزية. وكان هذا هو الإذن الوحيد من نوعه الذي أعطاه جبران لأي مترجم. وفي إحدى الزيارات سأل جبران عن صدى كتاباته في الجالية، فقال له آندرو إن جميع من يعرفهم ويقرؤون لجبران معجبون بكتاباته ويتابعونها في الصحف والمجلات المهجرية والعربية، فسأل جبران آندرو: «هل تعلم يا آندرو ماذا حصلت من مدخول من كل كتاباتي العربية؟» فأجاب آندرو: «لا». فقال جبران: «إن كل ما حصلت عليه من كتاباتي العربية كان صفرًا.» وفعلًا، فإن أوضاع جبران المادية لم تبدأ بالتحسن إلَّا بعد أن بدأ ينشر كتبه ورسوماته باللغة الإنجليزية فحقق منها شهرة وعائدًا ماديًّا، خاصة بعد نشر كتاب «النبي» الذي أعيد طبعه أكثر من مائة مرة، وبيعت منه ملايين النسخ. وكان جبران بعد تحسّن أوضاعه المادية يساعد أعضاء الرابطة وبعض الكتّاب الآخرين الذين كانوا يواجهون مشاكل مالية.

وقبل ثلاثة أسابيع من وفاة جبران، زار آندرو الصومعة ليطلع جبران على مخطوطة الترجمات التي أعدّها للنشر. وجلسا معًا لمدة أربع ساعات. وعن تلك الجلسة كتب الشاعر والروائي غريغوري أورفلي: «كان آندرو يقرأ الترجمات ويقول له جبران: اقرأ يا أخي اقرأ». وبعد الانتهاء من القراءة قال جبران لآندرو - كما كتب الأديب الشاعر هنري زغيب - «عملك قريب جدًّا من روحي، وأنت ترجمت روحي ولم تترجم جسد الكلمات.» وقبل المغادرة أهدى جبران آندرو نسخة من كتابه الأخير «آلهة الأرض» الذي صدر ذاك الأسبوع وكتب له إهداء، وذكر بأنه سيعرض الأشعار (المترجمة) على دار كنوف للنشر وأن يعود إليه بالمخطوطة في أيلول (سبتمبر)، إبان موسم النشر.

ورغم ما لاحظه من شحوب جبران، لم يكن آندرو ليدري أن هذه ستكون زيارته الأخيرة له. وبعد أسابيع قليلة كان آندرو يسير في الشارع عندما سمع بائع الصحف ينادي «أكسترا، أكسترا» على صحيفة النيويورك تايمز، وعلى صفحتها الأولى كان نبأ وفاة جبران. وكان لوفاته وقع مأساوي على آندرو وعلى الجالية ككل. وبعد فترة من ذلك زار آندرو شركة دار كنوف لإطلاع الناشر على مخطوطة، ولكن الناشر قال له إن عليه الاتصال بباربرا يونغ لأنها الوصية على آثار جبران ومنفذة وصيته. وأصرّت يونغ بأنها تريد أن تكتب المقدمة لترجمات آندرو بينما كان آندرو يريد أن يكتبها ميخائيل نعيمة. وفي ما بعد قالت له يونغ إن لها الحق بمنع نشر الكتاب إن لم يقبل بشروطها، ومن تلك الشروط إدخال تعديلات طفيفة على الترجمة. ولكن آندرو قال إن لديه إذنًا خطيًّا من جبران وإن له حق النشر، ولكنها قالت إن دار كنوف لن توافق على النشر من دون موافقتها. وبعد اتصالات كثيرة وأخذ ورد مع الناشر، أصر الناشر على ضرورة اتفاق آندرو مع يونغ إذا أراد أن تنشر المخطوطة في دار كنوف.

وفي سنة 1933م وصلت الأنباء إلى آندرو بمرض والده وضرورة عودته إلى البلاد، وكان نعيمة قد غادر الولايات المتحدة. ولذلك وافق على أن تقوم يونغ بكتابة المقدمة لأنه أراد أن يكون كنوف هو الناشر. وصدر الكتاب بعنوان «أشعار منثورة»، وأعيدت طباعته أكثر من ثلاثين مرة. وبعد عودته أطلع آندرو نعيمة على ما كان له مع يونغ، وفهم منه أنه كان على خلاف معها. وبقي آندرو على صداقة وثيقة وتواصل مع نعيمة.

وكان آندرو يأمل أن يعود إلى الولايات المتحدة بسرعة، ولكن وفاة والده، ثم وفاة والدته دفعتاه للبقاء لفترة أطول في لبنان. وبعد فترة تزوج من حنه الدبغي، وأنجب أربعة أولاد هم، إضافة إلى إدمون، أدما وماري الموجودتان في أميركا حاليًّا، وغلاديس التي لا تزال تقيم في لبنان مع زوجها شبلي الغريب وولديهما ناجي وربيع. وخلال هذه الفترة اهتم آندرو بأسرته وبأرضه، كما عمل بتدريس اللغة الإنجليزية وآدابها في مدارس لبنانية وسورية، واستمر في القيام ببعض الترجمات لأعمال أحبها إلى اللغتين العربية والإنجليزية، ومن بينها أشعار ليوسف غصوب وصلاح الأسير وإدفيك شيبوب وألبير أديب ويوسف الخال وخليل

حاوي ونزار قباني وغيرهم. كما ساهم في نقاشات أدبية وتاريخية على صفحات جريدة النهار وجريدة المكشوف وصحف ومجلات عربية أخرى، وكان من بينها نقاش مع المؤرخ المعروف جوزيف نعمة حول أصول وتاريخ مخطوطة «الكودكس سيناتيكوس» الموجودة في مكتبة مار كاترينا في سيناء. وأصبح الاثنان في ما بعد صديقين.

وعاد آندرو بصحبة زوجته إلى أميركا عام 1974م، وبعد سنوات، وتحديدًا في عام 1981م، عاوده الحنين إلى قريته الصغيرة فعاد إلى لبنان. إلا أن الغزو الإسرائيلي للبنان في عام 1982م دفعه للعودة مجددًا إلى أميركا.

وعندما قررت الولايات المتحدة تكريم جبران خليل جبران بإقامة حديقة تحمل اسمه ونصب يمثّله، وذلك بعد سنوات من الجهد المكثف لمجموعة من أبناء الجالية العربية الأميركية، دُعي آندرو غريب ليكون ضيف الشرف في الاحتفال الذي نُظم في مكان رفع التمثال وفي مكتبة الكونغرس. واستمر الاحتفال حوالي ثلاثة أيام وشارك فيه الرئيس الأميركي جورج بوش الأب وعدد من كبار مسؤولي إدارته، إضافة إلى عدد من أعضاء الكونغرس من أصول لبنانية وممثلين عن حاكمية مدينة واشنطن، بحضور السفير اللبناني وسياسيين وأدباء لبنانيين وأعضاء السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي. وعقدت مكتبة الكونغرس الشهيرة مؤتمرًا عن جبران وأدبه وتأثيره دعي إليه عدد من الكتاب والشعراء والفنانين الأميركيين واللبنانيين والعرب الأميركيين. وخلال هذا المؤتمر تحدث آندرو عن ذكرياته مع جبران وعن اعتزازه بالمنزلة العالمية التي بلغها صديقه، إضافة إلى أهمية كتاباته، كما ألقى بعض أشعار جبران التي ترجمها إلى الإنجليزية.

وذكرت مجلة الحوادث التي غطت الاحتفالات بأن آندرو غريب كان الضيف الذي جذب اهتمام الجمهور. وأما الشاعر والكاتب غريغوري أورفلي المختص بأدب المهجر والذي ألف مع شريف الموسى كتابًا عن أدب المهجر استخدم فيه بعض ترجمات آندرو، وكان من بين منظمي احتفال الكونغرس، فقد قال في مقابلة مع صحيفة «ذي يونيون» إن: «آندرو رجل فريد، وإن حضوره في الحفل كان طاغيًا وإنه استأثر بالاهتمام الأبرز». وأضاف أورفلي: «لقد كان لدينا الكثير من الأدباء والشعراء والفنانين الذين شاركوا في حفل التكريم وفي الحديث عن جبران، ولكن هذا الرجل ابن الثالثة والتسعين تحدث بصوته الأجش والعميق عن جبران وشعره وحصل على التصفيق الأطول والأكثر دويًّا من قبل الجمهور». وبعد المحاضرة وقف عدد كبير من الحاضرين في صف طويل استمر لأكثر من ساعة ونصف الساعة للحصول على توقيع آندرو على كتابه. وبعد أن نفدت الكمية المتوفرة من الكتاب، لجأ البعض إلى إحضار أوراق بيضاء وبطاقات الدعوة كي يمهرها آندرو بتوقيعه.

وكتبت صحيفة «صنداي ريبابليكان» مقالًا بعد هذه المناسبة بتاريخ 4 آب (أغسطس) 1991م على صفحة كاملة أعده المراسل والكاتب المعروف توم شاي الذي أجرى مقابلات

مع آندرو ومع العديد من الأشخاص الذين عرفوه، وأشار إلى أن بعض الأكاديميين الذين أجرى معهم مقابلات وصفوا آندرو بأنه «منجم ذهب وموسوعة معلومات عن تاريخ الشرق الأوسط وعن الأدب العربي والإنجليزي». وذكر أن «ترجمة آندرو لكتابات جبران الأولى باللغة العربية ساعدت على تعريف العالم الغربي بأهمية هذه الكتابات وبأن لجبران كتابات أخرى غير كتابه «النبي»، ولهذا فإن العالم يجب أن يشكر آندرو غريب على قيامه بهذا العمل الكبير.» وعندما سأله شاي عن سر تملكه لناصية اللغات العربية والإنجليزية والروسية والبولندية، قال آندرو إنه بذل مجهودًا في دراسة هذه اللغات، ولكنها لم تكن صعبة بالنسبة له، وأن التحدي الحقيقي أمامه كان هو كيفية تحويل سحر لغة إلى سحر لغة أخرى.

وأما الكاتب والأكاديمي الكبير وصاحب كرسي جبران في جامعة ميريلاند الدكتور سهيل بشروئي الذي لعب ولا يزال يلعب دورًا كبيرًا في نشر أعمال جبران وسواه من أدباء المهجر والحفاظ على تراثهم، فقد كتب أن «آندرو غريب كان أفضل وأقدر من ترجم لجبران إلى الإنجليزية».

وبدوره الشاعر هنري زغيب الذي أجرى مقابلتين طويلتين مع آندرو، كتب في صحيفة الهدى مقالًا في 13/ 4/ 1998م بعنوان «آندرو غريب، سنديانة من لبنان» جاء فيه: «عمره من عمر الهدى، فهي ولدت في نيويورك في 1898م، وهو ولد في عيتا الفخار عام 1898م، وانتقل إلى سبرينغفيلد بولاية ماتساتشوستس عام 1913م حيث لا يزال فيها إلى اليوم، يحمل كل فجر حنينه إلى لبنان، ويحلم بالعودة إلى كتبه وبيته العتيق وحفافي طفولته في عيتا الفخار. سنديانتان من لبنان في أميركا، أمد الله بعمره وعمرها وأعطانا بركة الخير من أيدي شيوخنا المباركين... في الطريق إليه مع صديقي الدكتور عدنان حيدر الذي قدمني إليه، لم أكن أعرف أنني سأقضي معه سبع ساعات متتالية. تعب القلم في يدي، وهو يا بارك الله لم يتعب من مطر الذكريات، كريمًا كان وكبير القلب ككل شيوخنا المباركين. قصدته حيث يقطن في مدينة شيكوبي لأنني أعرف أنه الوحيد الباقي من رفاق جبران. سبع ساعات غنية من الذكريات أمطرني فيها هذا اللبناني الطيب بحكمة الشيوخ وذاكرة الشباب. سبع ساعات من الكلام ووحده الصامت بيننا جرح لبنان النازف. آندرو غريب آخر ذاكرة حية من عصر جبران، عمره من عمر الهدى. الأسبوع الماضي احتفلنا بذكرى مولده ومولدها، وهذا الأسبوع احتفلنا بذكرى غياب جبران».

وكتب توم شاي: «إن كتابات آندرو وجهوده تعكس انسجامه المخلص وإعجابه الكبير وأهمية كتابات جبران الأولى وقوّة تأثيرها، وكانت هذه مهمة آندرو خلال سبعين سنة، قام خلالها بترجمة كتابات جبران إضافة إلى كتابات عدد من أدباء المهجر الآخرين، من أمثال أمين الريحاني وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وإيليا أبو ماضي وغيرهم. وقد ألقى محاضرات وأجريت معه مقابلات حول هذا الأدب. كذلك قام بترجمة بعض أعمال

الشعراء الغربيين إلى اللغة العربية. وكانت أول كتابات وترجمات آندرو إلى العربية قد نشرت في صحف مهجرية مثل «مرآة الغرب» و«النسر» و«البيان» و«السمير» و«العالم السوري» The Syrian World التي كانت تصدر بالإنجليزية. أما ترجماته الأولى إلى اللغة الإنجليزية فقد نشرت في صحيفة «ذي ريبابليكان» The republican التي كانت من الصحف المعروفة باهتمامها في قضايا الأدب والشعر، في أوائل القرن العشرين، حيث كانت تنشر «زاوية الشعراء». هذا بالإضافة إلى صحيفة «سبرينغفيلد يونيون» وجريدة «نورفولك نيوز»، و«ذي تورش» و«ذي غولدن بوك ماغازين».

وكتب عدد من الباحثين عن آندرو، وكان من بينهم خليل جبران، ابن عم جبران خليل جبران، الذي كتب بشكل لافت عن آندرو، وكذلك الشاعر غريغوري أورفلي الذي قال بأنه كان أول من ترجم كتابات جبران الأولى وآخر من ترجم له في حياته. أما باربرا يونغ فقد أشارت في كتابها «هذا الرجل من لبنان» إلى أن «الترجمة فن قائم بذاته، فهي عملية خلاقة.» وقالت في مقدمتها لكتاب «أشعار منثورة» عن آندرو: «إن عمل آندرو غريب عكس التزامه المخلص وإعجابه الكبير بقوة وأهمية كتابات جبران الأولى، حيث نجح آندرو في نقل روح جبران في كتاباته العربية إلى الإنجليزية».

في مقدمته لديوان الشاعر والأديب المهجري نسيب عريضة «الأرواح الحائرة» (1946م)، أشار إبراهيم حبيب كاتبة، وهو أحد أدباء المهجر المعروفين ممن أتقنوا اللغتين العربية والإنجليزية، إلى التحديات التي واجهت أدباء المهجر كما واجهت آندرو قائلًا: «إذا انطوى هذا الجيل الذي شهدنا فيه حربين بربريتين - فسيأتي جيل تتوحد فيه الثقافة ويتجلى الأدب العالمي على منصته الرفيعة لأول مرة في التاريخ. وعندئذ سيعلم الذين سيخلفوننا أن الأدب الحقيقي لا يحد بالمناطق، وأن الشعر الجميل لا يعرف باللغة التي أنشد بها.» وأضاف أنه عندما تتوحد الثقافات ويتجلى الأدب العالمي فإن العالم عندئذ سيذكر بكثير من الإعجاب والاستغراب أن بلابل الشعر صدحت بين ظهراني شعب مهاجر ضعيف (أي المغتربين العرب) غريب اللغة والتقاليد والعادات، حائر في أمره ومصيره - صدحت بنغم لم يسمع أعذب منه، بينما لم يتمتع به إلّا عدد ضئيل ممن أتيحت لهم معرفة اللغة التي ينطق بها ذلك الشعب».

وإلى أن يأتي العصر الذهبي، فإن كاتب هذا المقال يرى أن العصر الحالي بالنسبة لأدباء المهجر هو عصر الحسرة والحيرة. وفي إشارة واضحة إلى الصعوبات التي عانى منها آندرو قال إن الأدب المهجري وكتّابه عامة عانوا من التهميش في أوطانهم الجديدة بسبب اختلاف اللغة وبالتالي من عدم القدرة على كسب العيش من أعمالهم الأدبية، كما أن بعدهم عن الوطن الأم وعدم وجود علاقات طيبة مع المحررين وأصحاب الصحف والمجلات في العالم العربي

ساهما في عدم ذيوع صيت العديد منهم. كذلك كانت المدارس الأدبية التقليدية هي المهيمنة ولم ترحب أو تعترف بالثورة الأدبية وبالأساليب الشعرية والأدبية الجديدة لكتاب المهجر. ولذلك، فإنهم كما سبق أن كتبت «بلابل صداحة في أقفاص ضيقة يغردون وليس من يسمعهم إلا نفر قليل لم تلههم التجارة أو البيع عن التمتع بالثروة الروحية، كما أن هؤلاء لم يحظوا من كتاباتهم بمردود مادي يتيح لهم عيشًا مريحًا، علمًا بأن الكثيرين من أبناء الجالية لم يكن لديهم الاهتمام الكافي بالأمور الأدبية والشعرية، وكانوا منشغلين بالبحث عن أرزاقهم. واضطر العديد من هؤلاء وبينهم آندرو إلى العمل في وظائف بعيدة عن مجال اهتماماتهم الأدبية.

وخلال زيارة لصديقه ميخائيل نعيمة قبل عودته لأميركا في عام 1974م، سأله آندرو: «ألا تحب السفر ثانية لأميركا؟» فأجابه نعيمة: «بعد هلاّ يا آندرو؟ بايام اللولو ما هللولو.» وعانى آندرو من أوضاع مشابهة لتلك التي عانى منها الكثيرون من كتّاب المهجر وأدبائه، فهو لم يستطع الحصول على ما يسد رمقه من كتاباته وأعماله الأدبية، كما أنه لم يكن معروفًا جيدًا في الأوساط الأميركية، وإن كان قد نجح في بعض الترجمات والكتابات في الصحف والمجلات الأمريكية، التي لم تكن كافية، مما اضطره إلى العمل في أشغال لا تمت للأدب والترجمة بصلة. ولم يحظ آندرو بالدعم من بعض الذين أعجبوا بكتاباته وترجماته. وعندما اشتهر إثر نشر ترجماته لجبران عبر دار كنوف، اضطر للعودة إلى الوطن الأم بسبب مرض والديه، كما أن سكناه في قريته البعيدة عن بيروت واضطراره للانشغال بأمور المعيشة لم تتح له طرق الأبواب التي كان يمكن من خلالها أن يلج عالمًا أدبيًا أوسع وأن يفتح أبوابًا جديدة تسمح له بالتفرغ للترجمة والأدب أو للحصول على دخل يمكنه من العيش من خلال ترجماته وأعماله الأدبية.

المراجع العربية

- الأسمر، فوزي، «تكريم جبران بغياب الأدباء والصحافة العربية»، القبس، الكويت، 6 حزيران (يونيو) 1991.
- نعمة، جوزيف وغريب، آندرو، مناقشات حول الكودكس سيناتيكوس (أقدم مخطوطة للعهد الجديد وصفحات من العهد القديم تعود إلى القرن الرابع للميلاد، اكتشفت في دير القديسة كاترينا)، ملحق النهار، بيروت، شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) 1974.
- زغيب، هنري، «سنديانة من لبنان في أميركا الهدى وأندرو غريب»، الهدى، نيويورك، 13 نيسان (أبريل) 1990.
- «جبران في ذاكرة معاصريه»، الناقد، لندن، تموز (يوليو) 1992.

ـ «وفاة آخر رفاق جبران»، الأنوار، لبنان، 19 آذار (مارس) 2000.

المراجع الإنكليزية

- Bushrui, Suheil, «Andrew Ghareeb: In Memoriam», Dialogue Magazine, Washington D.C., April, 2000.
- Letter to Edmund Ghareeb from Prof. Suheil Bushrui, director of the Khalil Gibran Research and Studies Project, University of Maryland, USA, March 22, 2000
- Ghareeb, Andrew, Prose Poems, Alfred E. Knopf, New York, 1934.
- Orfalea, Gregory and Al-Musa, Sharif, Grape Leaves: Anthology of Arab-American Poetry, University of Utah Press, Salt Lake City, 1988.
- Interview with Andrew Ghareeb Washington D.C., August 28, 1985.
- Shea, Tom, «Translating Art for Love's Sake: Khalil Gibran Poems live through 93-year-old», The Sunday Republican, Springfield, August 4, 1991.
- Young, Barbara, This Man from Lebanon, Alfred E. Knopf, New York, 1934.

❊ ❊ ❊